عبد الرحمن الربيعي

روناك *

قفزت روناك في سيارة الحمل الكبيرة بعد ان انتزعت جسدها بصعوبة من زحمة العائدين الذين اخذوا ينهالون بأعداد كبيرة ، واستقبلتها البسمات الاخوية الصافية على وجوه الضباط والجنود، آنذاك ارتمت روناك على الارض . شمت التراب ثم حملت حفنة منه، لاكتها بأسنانها فدب الحماس والصحو في وجهها الضامر . ثم نهضت وكأنها تولد من جديد ، وتنفرس في ارضها وزمنها ثمرة رائعة وشهية .

كان امامها ضابط شاب ، البسمة لم تفارق شفتيه . وكادت دموع الفرح ان تنط من عينيه وهو يتأمل صلابتها .
قال لها :

ـ هيا ادخلي أيتها الاخت ، انه وطنك .
هتفت روناك :
ـ لقد خدعونا ، لعبوا بنا .
طقطقت حنجرة رجل عجوز كان يتكوم على جانب الطريق :
ـ لعنهم الله .
ثم رفع صوته مقاتلا البرد والشيخوخة :

ـ الا تعرفين عائلة كمال نامق ؟

وانتبهت روناك الى صوته وردت :
ـ لا والله ، الجوع والذل لم يجعلانا نفكر بأحد .

وعادت من جديد لتسرح بنظرانها . كان في عينيها أعسليتين ربيع الجبال ، وكم تألقتا بالفرح الغامر وهما تفردان لنوروز وداوة الحداد ، او وهما تدبكان وتعانقان قمم الجبال العالية . دارت عيناها ، كانت قرية « شيروش » آمنة ، على حدودها بقرات يلتمع لونهن مع ظلة الصباح . والتفتت الى الجهة الاخرى : كانت قرية « ماواتان » هي الاخرى تصحو وتدب فيها الحياة الابدية .

نظرت لكل الاشياء التي تحيطها بتأمل ، وهي غير مصدقة انها في الوطن ثانية . امامها تماما كان مخفر الشرطة ، ما زال كما تركته ، كانت آخر مرة تراه فيها قبل شهور عندما أجبرها المتمردون على اجتياز الحدود ، والعيش في المخيمات حيث الجوع والذل والانتظار . وعندما اكتشفت بطلان اللعبة لم تستطع العودة، وظلت تكتم لوعتها حتى جاء قرار العفو بعد انهيار المتمردين .

تمتم لها ضابط آخر :
ـ اهلا بك في وطنك .
ـ لا اكاد اصدق عيني .
ثم حملت صرتها وخطت باتجاه سيارة الحمل التي ستقلها الى مدينتها .

وقبل ان تتحرك بها السيارة ألقت نظرة على الرجل العجوز المكوم على جانب الطريق . قال الضابط شارحا :

ـ انه نامق كمال ، لم يستطع المتمردون ارغامه على الهجرة ، لكنهم ارغموا زوجته واولاده ، ومنذ صدور قرار العفو وهو جالس هنا في انتظار مجيئهم دون ان يكل من السؤال عنهم .

وظل نامق كمال مرميا ، حزنه يكبر كل يوم ، ينفث دخان غليونه الفخاري ، وينطرح على الرصيف مندثرا بمعطفه السميك الذي صنعه ذات يوم من جلد كبش اثير لديه ، والتساؤل لا ينطفىء على وجهه القديم .

يهمس له الضابط الشاب :
ـ اذهب الى بيتك ، وعندما يأتون سيقصدونك حتما .
ـ اريد ان اكحل عيني بمرآهم قبل ان اموت . لقد بقيت في « حاج عمران » وعندما حررها الجيش وقفت في استقباله ،تمتمت بانغام الدبكة ، وتركت جسدي العجوز يهتز طربا .

وابتسمت روناك وهي تقرأ الصمود في وجه العجوز ،وبدأت أنامل الفرح تلامس اهابها المحموم . بعد ذلك تربعت في قاع السيارة التي تحركت ببطء .

كانت الجبال الشامخة تمتد في سلاسل متداخلة ، بينما تنحدر السيارة في طريق يطل على واد عميق، اما القمم فتشرق بالثلج، ويسطع لونها الابيض مع صحوة الشمس ونقاء شعاعها .

وتتنفس روناك رائحة البرد اللاذعة ، فتسري في كيانها خضة

(*) تعني كلمة روناك باللغة الكردية الضوء . وهي اسم متداول بين النساء .

رائقة . وتحس وكأن عناق الريح لحواسها يحيي كل خلاياها المطفأة ، ويوقظ افراحها الدفينة ، ويوقد فيها جذوة الامل التي كادت ان تضيع .

كانت هناك زهور بيضاء . رفعت اعناقها من بين اكوام الحجارة وغابات العشب الندى ، وكأنها يافطات محبة تحيي العائدين، ولكن الالم يصدعها دائبة كما ظلعها مرأى البيوت المهجورة ، حيث تتذكر ما فعله المتمردون بالاهلين ، وكيف هدموا بيوتهم او احرقوها حتى يصبحوا مجبرين على الرحيل .

وابتلعت نصل الحسرة وهي ترى اعمدة الهاتف والكهرباء المحطمة ، ولكن الفرح يولد من جديد عندما تقرأ كتاب الخضرة وهديل نيسان في الساحات الممتدة على جانبي الطريق،هذه المساحات التي كسيت بالعشب المتلألىء ، وظلت الصور تتعاقب ، مواطنون يعيدون بناء بيوتهم المهدمة ، جنود وفلاحون يصلحون الطرق . واخذت صورة الوفاق تكبر امامها ، جندي وفلاح كردي شاب يمسك كل منهما بيد الاخر ويتمشيان بأخاء وصداقة ، وتمنت لو انصتت لحوارهما ، الى نبضات الامل الجديد الذي يرف في قلبيهما . تمتمت :

ـ هل أنا في حلم ؟

وانتبهت انذاك لاول مرة الى مواطنيها الذين يشاركونها السيارة، كانت ساهية عنهم وهي ترف في سماء التأمل والفرح الجميلين .

امامها تماما بجنب عجوز ضامرة ، تسند ظهرها على صرة كبيرة امتدت منها اطراف اوان نحاسية ، وقطع ملابس داكنة الالوان ،وعن يمينها شاب وسيم يرتدي ملابس مدنيه ، بنطلونا مع كنزة صوفية سميكة ، ويطرح ظهره على جدار السيارة بينما تتمدد ساقاه الطويلتان امامه ، وكان ضيلة الوقت لا يكف عن التدخين وتأمل رونك بطرف عينه بين فترة واخرى ، وفي مقدمة السيارة وقف ثلاثة رجال تعدوا مرحلة الشباب ، وقد تركوا حقائبهم خلفهم بينما راحت نظراتهم تتجول في المكان .

حوار :

تساءلت العجوز وهي توجه كلامها الى رونك :

ـ من أين ؟

اجابت :

ـ من صلاح الدين .

وشاركهما الشاب الحديث وقال :

ـ اما انا فمن راوندوز .

واخذوا يثرثرون ويوضحون حالتهم اكثر . قالت العجوز :

ـ لقد قتل زوجي وولداي .

وترددت رونك :

ـ اما أنا فلا اعرف من بقي حيا او من مات .

وعلق الشاب :

ـ كانت مدينتك بعيدة عن المعارك بعكس مدينتي .

وقالت رونك :

ـ اتحدث عن الذين ساقوهم لمقاتلة الجيش ، اخوان وابناء عم، وخال أوه ..

ثم تحدثوا عن اعمالهم حيث قالت رونك :

ـ انا معلمة ، ومدرستي في صلاح الدين ايضا .

وعادت لتتمتم من قلبها :

ـ لا اصدق انني سأرى وجوه طالباتي من جديد :

ونطق الشاب :

ـ سترينهن حتما .

ثم استرسل في كلامه :

ـ أنا معلم ايضا ، عدت مع الوجبه الاولى .

ثم دس يده في جيبه، واستخرج ورقة مدها لها وهو يقول :

ـ هاك اقرئي ، هذا الامر الاداري بأعادتي الى الوظيفه ،عندما نصليـن اذهبـي رأسـا الى مدرستك وسجلي مباشرتك .

قالت :

ـ كنت ادرس الحساب . أوصلتهن الى الجمع ، لا ادري ماذا اخذن بعدي ؟

المعلـم :

عندما دخل راوندوز وجدها انقاضا ، تقد نسفها المتمردون قبل ان ينسحبوا منها . ثم تركوا عشرات الالغام بين الانقاض.جاره«حمه» مات امام عينيه ، كان يحمل الطابـوق ليعيد ترميم بيته ، ولكـن اللغم انفجر تحت قدميه فتطاير جسده الفني اشلاء .

لكـن الجنود يحاولون ابطال مفعول غرسات الدمار هذه ، لقد بدأوا بتفجيرهـا في الجبـال المجاورة . وفي الممرات ، وقرب عيون الماء،عشرات الالغام زرعت بشيطانية حتى في اجساد القتلى ،وشدوا احدهـا بالاخـر .

انتظر اهله ولكنهم تأخروا في العودة لذا غادر خارج الحـدود ثانيـة وذهب الى بقايا المخيمـات باحثا عنهم . وقال للذين يعرفونه :

ـ هذا انا حي امامكم ، لم يقتلني احد ، وهذا امر اعادتـي الـى الخدمـة .

سمعه الكثيرون فحملوا امتعتهم . وانتزعوا اجسادهم من ضنك المخيمـات وعادوا الى اهلهم ثانية .

وقد همس له احدهم قائـلا :

ـ مرة ذبحوا خروفا ولطخوا بدمه السيارة . ثم طافوا بها في المخيمـات وهم يصرخون : انهم هناك يذبحون من يعود ، وهذه دمـاء المذبوحين في السيارة .

رونـاك :

فرحتها تكبر .وهي تصافح قمم « حصاروست » و « السر حسن ».

احد الجنود يقول :

ـ كانت بطولة لم يعرفها احد عندمـا احتل مقاتلونا قمة هـذا الجبـل الاشـم . . وطهروه من الخونة . حتى دباباتنا وصلت الى هنـاك ونسفت كل تقديرات العملاء . لقد حققنـا المعجزة بعدهـا اصيب اعداؤنـا بالخرس والذهول فولوا هاربين. احـد الاسرى أخبرنـا ان كبيرهم كـان يقول : اذا اخذ الجيش « السر حسن »فان حركتي تفشل ولن يبقى لي مـا يحميني .

لكن اوجاع رونك القديمة لا تندمل بسهولة ، الجوع والعوز ، وما حدث لبنات جنسها ، زهور يافعـة تسحق بلا رحمة ، كانتتراهن بعينيهـا . ترفع صوتها . ولا احد يسمعه ، اكلن اثداءهن . وشربن السم مرا وقائـلا .

ترفع وجهها الى أعلى ، تمرر اصابعها على جبينها وكأنها تخضبه بهواء أرضها .

وتظل النسمات تترى بعذوبة .

المرأة العجوز :

ـ كان ولداي حارسين في سجن رايات .

هكذا روت لروناك والمعلم ، واوضحت :

ـ ربيتهما ليكونا رحيمين بالناس . كان اكبرهما يخاف حتى من ايذاء العصافير . ولكنهم حولوه الى قاتل ، واختاروه مع أخيه ليحرسا السجن .

واستمرت في الشرح والعبرة تزحف الى حنجرتها :

ـ عندما أزورهما كنت أسمع أنين السجناء وعذابهم ، لكن ولدي الكبير كان يتشفى ويلتذ لذلك ، وبدلا من ان يحدثني عن شوقه لي ، كان يحدثني عن الاسرى الذين اعدمهم .

الرافيء :

بدأت السيارة تأخذ طريقها بصعوبة صاعدة الالتواءات القاسية بين الجبال المحيطة براوندوز ، وعبرت فناطر كانت قد نسفت مرات، ونصبت بدلا منها جسور عسكرية ، وعندما وصلت السيارة الى عين الماء على مشارف المدينة توقفت ، ونزل ركابها مسرعين ليحفنوا الماء بأيديهم ، ومن ثم ليعطروا به وجوههم فيصبح لها كيد من الامان تطرد التعب والضلال وتطفيء الحمى التي تنخر في محاجر العيون .

كانت هناك سيارة عسكرية خاصة بنقل الماء الى معسكرات الجيش، وقد تجمع حولها عدد من الجنود وهم يحملون الماء في صفائح كبيرة ليملأوا به خزان الماء في السيارة .

نزلت روناك وتطلعت الى الوديان الخضراء التي ظلت تتراقص بالخضرة رغم كل شيء . تأملت الجنود الفرحين وهم يتراشقون بحفنات من الماء . ابتسمت ثم رفعت اطراف توبها قليلا حتى تتمكن من تسلق السلالم الصغيرة المؤدية الى نبع الماء بخفة .

كان شلال الماء ينفجر من بين الصخور المظللة باشجار التين والجوز . وتذكرت روناك المقهى الجميل الذي كان في اعلى المكان ، وخمنت انه قد نسف ولم يسلم من القصف .

ثم انحنت قليلا وقربت وجهها من رذاذ الشلال ، واخذت تتنفس العبق الجميل . ملأت كفيها بالماء . ثم قربتهما من فمها . واخذت تشرب بتلذذ طاردة من اعماقها وحشة الليل البهيم ورعب المخيمات ، والجوع ، ودموع الاطفال .

اقترب منها المعلم وقال :

ـ لقد وصلت ، هذه راوندوز .

واشار بيده الى المدينة الهدمة . وتابع :

ـ انظري . لم يبق فيها سقف عامر . لقد نسفوها قبل ان يولوا الادبار . ولكن علينا ان نبنيها . ان نعيد ترميم البيوت والمدارس .

ثم انسحب من دون ان يطلق كلمة وداع . واخذ يخطو في الدرب الوعر باتجاه المدينة الثكلى .

انتبهت روناك الى نداء السائق فأسرعت وركبت السيارة . وتربعت على ارضها من جديد . دست وجهها بين يديها واخذت تبكي .

قرامل السيارة تدعك الحصى والحجارة . وتمضي بصعوبة مارة باطراف المدينة . ومن ثم عبرت الجسر الحديدي الذي شيده الجنود بدلا من الجسر المنسوف ، ولوحت بيدها الى المدينة التي تنهض من جديد .

الرافيء ايضا :

استخرجت المرأة العجوز من صرتها قطعة جبن ، اقتطعت نصفها وناولته الى روناك .

وبدأتا تقضمان الجبن دون ان تنبسا بكلمة . ولا يسمع منهما الا صوت صرير اسنانهما .

اما الركاب الثلاثة الاخرون ، فقد عادوا الى الوقوف ، وكانوا يشيرون بايديهم بين فترة واخرى الى احد المواقع ثم يتحدثون عن المعارك التي دارت فيه .

وعندما اصبحت السيارة في السهل الفسيح الذي يقع قريبا من مدخل « كلي علي بك » ، اخذ احدهم يضرب بيده على سقف السيارة فتوقف السائق بعد ان فهم الاشارة . هب الثلاثة مسرعين وحملوا حوائجهم ثم قفزوا باجسادهم في السهل سالكين الدرب الماضي باتجاه قرية ديانا التي كانت ابنيتها البيضاء تلوح من بعيد .

* * *

نظرت العجوز الى روناك وسألتها :

ـ الى صلاح الدين ؟

وهزت روناك رأسها بالايجاب ، فعادت العجوز الى السؤال :

ـ من لك هناك ؟

ـ امي وخالي .

تمتمت العجوز :

ـ اما انا فلا أعرف الى اين اذهب .

واضافت :

ـ لي أخت كانت في شقلاوة ، زوجها رجل مسن يعمل بقالا ، وانا ماضية اليها لعلني اجدها حية .

ثم اعادت شد صرتها بعد ان اتت على كل ما تبقى فيها من جبن وخبز جاف .

نظرت روناك اليها ، وتأملت زحف الزمن على وجهها الجبلي الابيض ، كانت تختصر الكآبة والحزن العميق . وتهمي عيناها بسنفونية العذاب والانين .

وامتدت يد روناك لتمسك بيدها . فهدأت يد العجوز المحمومة بأمان . واخذت تعتصرها تارة وتربت عليها تارة اخرى ، بينما تمضي السيارة مسرعة وسط غابات التين والجوز ، وفي الاعالي كانت تضحك سماء صافية زرقاء .

بغداد